الشعرُ الذي لا يعرفُ الهزيمة
حول ديوان "صارخٌ في البرِّية"

الناقد الأستاذ / محمد علوش

" أنا لستُ مع شفيق حبيب إلا بأن يبقى على ما هو عليه "

هذا ما قاله الشاعر المرحوم د. عبد اللطيف عقل قبلَ عدة سنوات، يوم صادرت السلطات الإسرائيلية ديوان الشاعر الفلسطيني المناضل شفيق حبيب " العوْدةُ إلى الآتي" في خطوة تستهدف النيلَ من مواقف شعرائنا الوطنيين وكمّ أفواهِهم، وحاكمَتهُ بتهمة ممجوجة وباطلة أصلاً ألا وهي الإرهاب.

وشفيق حبيب كما نعرفه وكما عهدناه منذ البداية شاعرًا صادقًا ومؤمنًا بكل كلمة يقولها أو يكتبها، ورغم كل المِحَن والصّعاب التي واجهته في مسيرته الإبداعية والثقافية والعملية فإنه تخطاها جميعًا بصلابة المثقف الوطني الداعي للحياة وشموخ الفلسطيني المعتز بأرضه ووطنه وشعبه وعشقه الصّوفي وولهه الحقيقي بجمال هذه البلاد.

(وما زال الشاعرُ شفيق حبيب يبدعُ من معين الأرض والوطن والتراث من أجل تحقيق الحرية المنشودة، والعدل المفقود في زمن الاعتقال الفكريّ، والأمل الضائع، وهو صاحبُ قلمٍ متميز، وشاعرية خصبة، ولغة حادّة، ووطنية متأصِّلة، وإنسانية عارمة)... كما يشير الكاتب والناقد الفلسطيني/ القطري د. يحيى زكريا الآغا في استهلال المجموعة والمقتبس من كتابه "إضاءات في الشعر الفلسطيني المعاصر ج ٢، الصادر في غزة سنة ١٩٩٨"

ونحن الآن مع "صارخٌ في البرِّية":

عنوانُ المجموعة كبيرٌ في قيمته الروحية والنفسية والفلسفية والتعبويّة، إذ إنه إضافة إلى هذا فهو عنوان بارز وحاضر في ذاكرتنا الجماعية، أظن إن لم يخبْ ظني بأنه مستمدٌّ من قصة يوحنا الصارخ في البريّة؛ كما جاء في الأثر المقدس في الديانة المسيحية وكتب اللاهوت.

وشاعرنا شفيق حبيب أراد من عنونته لهذه المجموعة، أن يؤكِّدَ تواصله على نفس النهج المناوئ للظلم والظلام، وأن يصرخَ في وجوه الغافلين الذين يميلون حيث تميل الرياح، ولا يشغلهم شاغل سوى الأمور الدونيّة والتافهة، يصرخُ بأعلى صوته لعله يُجدي بعد كل هذا ويحرك فيهم مشاعر النخوة والكرامة أمام شرف وسماوية المقام، ولكن لا حياة لمن تنادي!!

صدر الديوان عن "دار الحكيم للطباعة والنشر بالناصرة" سنة ٢٠٠١م وصمَّم الغلاف وأخرجه عناد حبيب، وتضمُّ المجموعة ٢٥ قصيدة كتبت على فترات متقاربة نسبيًا ونشر بعضها في صحف ومجلات محلية وعربية مختلفة، ويقسم ديوانه إلى ثلاثة أقسام :

- إنكساراتٌ حادّة.
- وردتان فلسطينيتان.
- أغاني الرّفراف.

وبالرغم من التباعد في مضامين ومرامي ودلالات قصائده، إلا أن خطًا رفيعًا يجمعُها في نسيج متكامل مع قوة النبرة وسلاسة اللغة وجمالية الصورة الشعرية والإيقاع الموسيقي والأداء.

في القصيدة الأولى من الديوان "أبو ذر الغفاري والعولمة" يدحضُ الشاعر فكرة وماهية "العولمة" ويعرّيها ويفضح أمرَها بصورة تلقائية واضحة ويصوّر الحقيقة المؤسفة والمؤلمة حيث قارنوا العولمة بالنور والرقيّ الحضاريّ أمام الشعوب المقهورة والمغلوبة على أمرها فهي في عصر التخلف والأمراض النفسية والإعاقية على مستوى الحضارة والثقافة والتفكير، بينما يحاول الغرب "عولمة" الحياة بكل ما فيها وفق قيمتها الاستهلاكية والانتهازية، وفي هذا الصدد يجلجل صوت الشاعر :

نحن لسنا في رحاب العولمة

إنما نحيا عصوراً مُظلمه (ص ١٣)

ويعدِّدُ الشاعر المأساة تلو الأخرى، محاولاً لفت الأنظار لِما يُحاكُ في الظلام في مواخير العولمة الأمريكية، وما وصلت إليه الأمور إلى وضع لا يُطاق في ظل القهر والظلم والإجحاف.

عنوانُ القصيدة موحٍ ويحثّ الخطى، لِقِيمِ عولمة الغفاري الإصلاحيّة المبنيّة على أسسٍ سليمة وحكيمة مع الدفء الإنساني المتنوّر بدلاً من التقريظ واستيعاب كل دخيل، ويحدِّدُ الشاعرُ دعوته لأبي ذرّ بشيء من الرغبة الجانحة والإلحاح:

يا أبا ذرٍ تقدّمْ!

وازرعِ الثورةَ ضوءاً

في القلوب المُعْتِمَه

عُد إلينا يا أبا ذرٍّ

وقدّمنا لسيفِ المحكمة (ص ١٨)

إذن شاعرُنا يريدُها ثورة تشعلُ الأملَ وتوقدُ الرغبة في النفوس نحو الإصلاح والتغيير وعلى كافة الصعد.

وكعادته لا ينقطع شاعرُنا عن قضية الوطن المكبل بالحصار، ولا يبتعد عن مأساة شعبه الذي بات على مرمى حجر من الحرية والعودة والاستقلال، بفعل بطولات أبنائه العُزّل القابضين على جمر الترقب والولادة، المُدجّجين بالأمل، وصَوْلاتهم وجَوْلاتهم في ميادين النضال الوطني التحرريّ الفلسطينيّ المُشرِّف، ومن رحم الانتفاضة التي تدور رحاها في الأرض المحتلة، يولدُ الشعر التعبوي المقاتل الذي لا يعرف الهوان والخنوع ولا يعرف الهزيمة، وكما عوّدَنا شفيق حبيب في مجموعاته الشعريّة السابقة وكجزء من المشهد الثقافي الفلسطينيّ، يواكبُ الحدث ويعبِّر عن الألم والأمل والطموح الكبير نحو التجلي في الوطن الفسيح، فهو إذن شاعرُ الكلمة الصادقة والملتزمة، شاعرٌ يدرك الأمور جيّدًا ويصيغها برؤيته هو، ويحسّ بالنبض حوله، ويعبِّر كما قلنا بقالبه الشعري الخاص بصدقِ الحاسّة والإحساس، وبالنظرية الثوريّة الواقعية.

وفي قصيدته التي يُهديها إلى شهدائنا الخالدين "عاصفةُ الدهور" يرسلُ برقيةً لشهيد الانتفاضة يُصوِّر فيها مأساة المرحلة بشيء من التحدّي وبإصرارٍ على الحميميّة والتواصل بين أبناء الشعب الواحد في كل أماكن تواجُدِه :

قلبي معكْ

ورصاصُ وحشِ الغابِ

يحرقُ أضلعَكْ

ودماءُ قلبكَ نازفاتٌ

كي تضيءَ الدّربَ

يا زينَ الشبابِ !

فلم أصدِّقْ مصرعَكْ

فعدوّ نور الشمسِ والإنسانِ

من كأسِ المنايا جرّعكْ (ص ٤٣- ٤٤)

وهنا يتجلى الموقفُ المؤثرُ فعلاً، حيث يخشع الشاعر ونخشع معه أمام ضريح فارس الشعب وشهيد الزمان والمكان، وبأسلوبه البسيط، السهل المُمتنع، المُقنع، المشوِّق والجذاب، يوجّه عذوبة كلماته للقبر هذه المرّه، فالبعثُ حتمًا قادم لا محاولة وإن سقط الشهداءُ والفرسان، فلن تسقطَ الرسالة، وهنا يُكمل :

يا قبرُ !!

يرقدُ فيكَ غصنٌ ناضرٌ

يا قبرُ... !!

فيكَ قلوبُنا

وعيوننا

فالشعبُ فارسَهُ المؤزَّرَ أودعَكْ (ص ٤٩)

ويواصل شفيق حبيب بهذه الروح المتوهّجة، المتوثبة، وهنا في قصيدته "يا طائرَ القلب..." نراه رومانسيًّا إلى أبعد الحدود مغموسًا في أحزانه وأشجانه الإنسانية، فهو يبدأ القصيدة بهذه الشفافية وهذا التجلي الحزين معددًا الكروب والأزمات التي تواجهه كإنسان وكشاعر.. ها هو هنا طائر القلب :

للحُـــزنِ لـــونٌ.. ولـــي في الحُـــزْنِ ألـــوانُ

يـــا طـــائرَ القلـــبِ كـــم أشـــجَتكَ أحـــزانُ

ويعودُ شاعرُنا ـ صاحبُ الموقف هنا ـ ليكشفَ ما في نفوسنا من وهم وأمراض على كافة الاتجاهات وخصوصًا الأزمة الطائفية التي واجهتنا كشعب إثر المحاولات السلطوية المارقة لدقّ إسفين الخلاف والاقتتال الداخلي بين أبناء شعبنا مسلميه ومسيحييه، وهنا في المقام الجلل لا بدّ من كلمةٍ تقال، فجاءَ كلام الشاعر بلسمًا للجرح في روحانية وعفوية صادقة :

والـــدِّينُ عنـــدي، صـــفاءُ الـــنفسِ يُســـكرُني

كـــــم شـــــدّني قـــــرْعُ أجـــــراسٍ وآذانُ

ديـــني مـــع الله.. لا أرضـــى لـــه وَسَـــطًا

مـــا أُنزلـــت للـــدِّما والعنـــفِ أديـــانُ

فـــالله لا يرتضـــي للعـــرشِ حاميـــةً

وحولـــهُ مـــن جنـــودِ النـــورِ فرســـانُ

ولا شك في أن شاعرَنا شموليٌّ في رؤياه ورؤيته، ومثقفٌ جامعٌ تناول في كتاباته معظم المواضيع التي يتطرق إليها معظمُ شعرائنا الفلسطينيين، وما يميّز حبيب هي هذه الاستمرارية وهذا التوهّج المنبثق من معين ثقافته الفلسطينية الواضحة.

ونحن نتصفحُ صفحاتِ الديوان نجدُ مزيجًا من الحزن والفرح والحب والحقد والتصريح والتلميح واللعنة والدُّعاء والتجلي والموقف والنبوءة والعزيمة والانكسارات الحادّة.

في مجموعة شاعرنا الكثير من المفاجآت، يغمرُنا دفءُ وانسيابُ قصائدِهِ ببساطةِ أفكارها وعمقِ معانيها وشاعرية كلماتها وتجليها بين مقامات الشعر.

وإذا كان شفيق حبيب أعلن عن نفسه صارخًا في البرِّية، فهو حتمًا سيتواصلُ في منهجيتِه، وسيؤكدُ صدقَ رؤيته وطموحه نحوَ الوصول، مع الاعتزاز به شاعرًا فلسطينيًا.

جريدة "الاتحاد" الحيفاوية

١٩-٧-٢٠٠٢